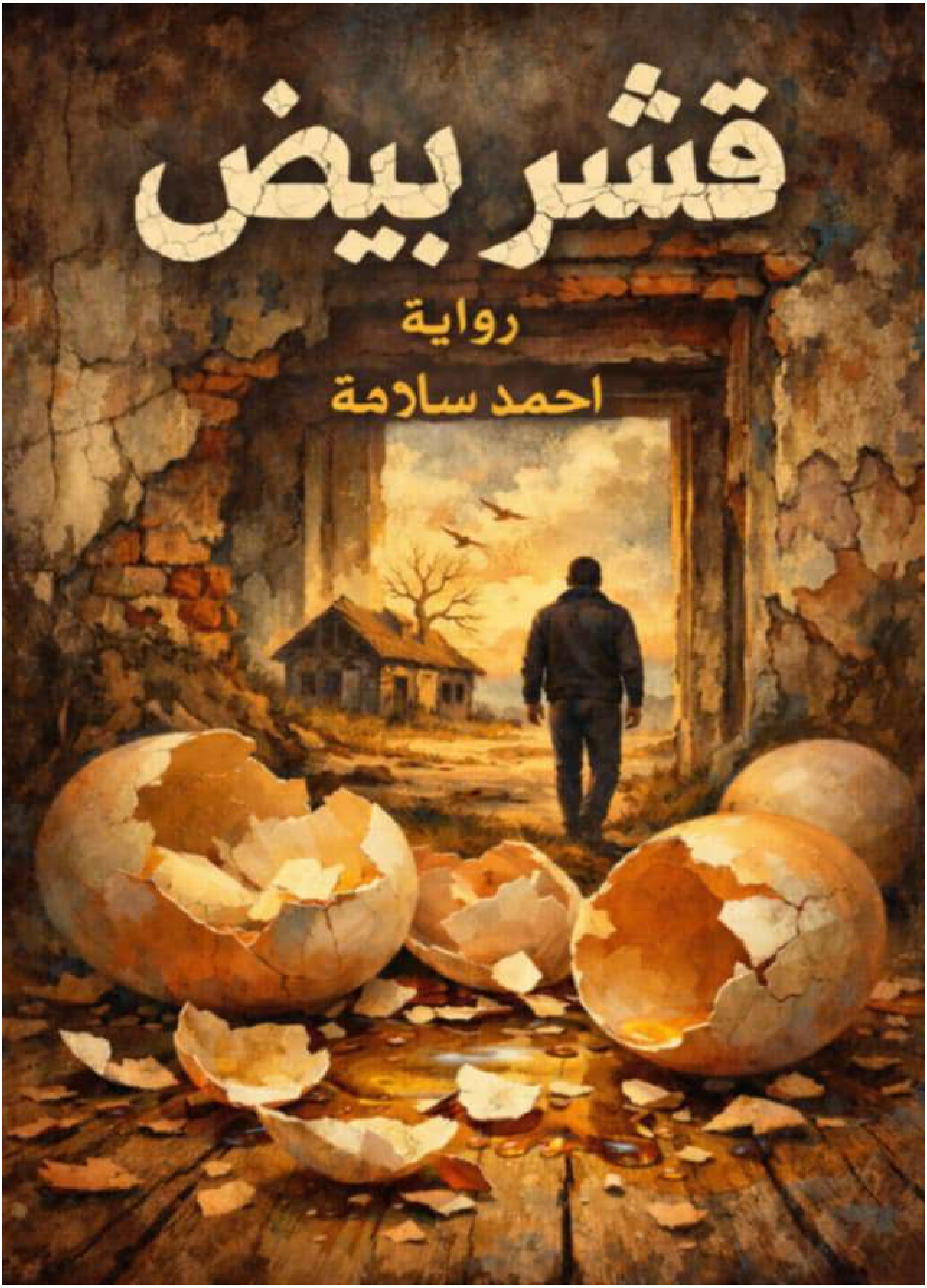
قشر بيض
رواية
احمد سلامة

تنويه :-

هذه الرواية بكل ما فيها من بشرٍ وأماكن وأحداث، هي من وحي خيال الكاتب وحده. لم تُستمدّ من واقع بعينه، ولا تُشير إلى أشخاصٍ لهم وجود في الدنيا.

قد يجد القارئ بين السطور وجوهًا تُشبه من عرفهم، أو مواقف تذكّره بما مرّ به أو سمعه، لكن ذلك ليس إلا من لعب المصادفة وتشابه الظلال، لا من قصد المؤلف أو نواياه.

الكاتب لم يكتب سيرة أحد، ولم يقصد الإساءة إلى شخصٍ أو جماعة، وإنما أراد أن يصوّر جانبًا من النفس البشرية، بما فيها من ضعفٍ وطمعٍ وحيلة، ومن صدقٍ ومحبةٍ وأمل.

وإن بدت الحكاية قريبة من الواقع، فذاك لأن الواقع أحيانًا أغرب من الخيال، والناس هم الناس في كل زمانٍ ومكان.

لذا، وجب التنويه بأن كل ما يُروى في هذه الصفحات هو محض خيالٍ أدبي، والمؤلف بريءٌ من أي تأويلٍ أو تشابهٍ قد يراه القارئ صدفةً أو وهمًا أو إسقاطًا على الحقيقة.

الأستاذ أحمد سلامة

مقدمة رواية " بيض قشر ":-

في القرى البعيدة، حيث ينام التراب على أنفاس الفجر، وتستيقظ الحقول على صياح الديكة، تبدأ الحكايات على مهلٍ كأنها تنبت من الأرض. هناك، لا شيء يحدث فجأة، فكلّ ما يبدو بسيطًا يحمل في جوفه سرًا، وكلّ وجهٍ يبتسم يخفي خلفه حكاية لا تقال.

في تلك البقعة التي يختلط فيها عرق الفلاح برائحة الطين، يعيش الناس بين الرغيف والحلم، وبين الصبر والخديعة. لا أحد يعرف كم من الألم يمكن أن يختبئ تحت كلمةٍ طيبة، ولا كم من الحيلة يمكن أن يسكن في قلبٍ وادعٍ كوجه الصبح. ومن هنا تبدأ الحكاية...

إنها حكاية رجلٍ بسيطٍ يُدعى سيد، لا يعرف من الدنيا سوى أرضه وزوجته، يزرع الأمل في تربته كما يزرع القمح، يؤمن بأن الخير يعود لمن يزرعه. لكنه لم يكن يعلم أن الأرض لا تردّ دائمًا بما يُلقى فيها، وأن بعض الحبوب تُزرع على تربةٍ غريبة لا تُنبت إلا خيانةً وصمتًا.

وشريفة، تلك المرأة التي تجيد تمثيل الضعف بمهارةٍ لا يتقنها سوى من عرف قلوب الرجال، كانت تحمل في عينيها مرضًا من نوعٍ آخر، لا دواء له في أعشاب القرية ولا في دعاء المساء. ومعها يظهر صالح، الرجل الذي يعرف كيف يشتري ما يريد، حتى لو كان قلب امرأةٍ تُخفي وجهها وراء حجابٍ من الزيف والدموع.

لكن "قشر بيض" ليست حكاية خيانةٍ فقط، بل حكاية بشرٍ من لحمٍ وطين، تتقاطع فيها الطيبة مع الغباء، والحب مع الخداع، والفقر مع الكبرياء. إنها مرآة لعالمٍ يلمع من الخارج كقشر البيض، هشٌ من الداخل، ينهار عند أول لمسة.

في كل صفحةٍ من هذه القصة، صوت الأرض حاضر، وصدى الندم يعلو بين السطور. فلا أحد يخرج من الحكاية كما دخلها، حتى القارئ نفسه سيجد بين الكلمات ظله، ووجعًا يشبهه، وربما شيئًا من خوفه القديم.

وهكذا، حين تتكشّف الأسرار، وتهوي الأقنعة واحدًا تلو الآخر، سنفهم أن القشر مهما لمع، يبقى هشًا، وأن ما يُخفى تحت البياض قد يكون عفنًا لا يُرى... إلا حين يتشقق الصمت.

إهداء :-

إلى أبي :- السند الذي لم يكلّ، والذي كافح بصمتٍ وجَلَد، وضحّى براحته ومتعة أيامه ليصنع لي طريقًا من نور.

إلى أمي :- نبع الحنان الذي لا ينضب، التي سهرت الليالي تزرع في قلبي الصبر والإيمان، وتغمرني بدعائها كل صباحٍ ومساء.

إلى زوجتي :- رفيقة العمر، التي تقاسمت معي ضيق الأيام وثقل الأحلام، واحتملت معي مشقة الطريق بقلبٍ مفعمٍ بالحب والصبر.

إلى ابني ياسين وبنتي نسمة :- نبضي المستمر ومعنى أيامي، بهما تزهر حياتي وتكتمل سعادتي.

وإلى كل :- من أحبني بصدق ووقف إلى جانبي في لحظات ضعفي وقوتي،

أهدي هذا العمل، عربون شكر ووفاء، ونقطة ضوء من قلبي إلى قلوبهم.

أشكركم جميعا من أعماق قلبي .

الأستاذ :- أحمد سلامة

في قلب الأرض الطينية التي لا تعرف غير المطر والعرق، كان سيد يشق الحياة بمحراث صدئ ويدين كأنهما خشب زيتون، قاسيتين لا تنكسران. لم يكن يملك من الدنيا غير كوخ طيني وسرير من جريد النخل، وامرأة اسمها شريفة، كانت تُضحك النسوة وتُبكيه.

شريفة، بعينين كعيون القطط، لا تعرف الزرع ولا الطبخ، لكنها كانت تعرف كيف تُقنع سيد بأنها مريضة، وأن عظامها "بتتكسر من جوّا". كانت كل ليلة تنام فوق الحصير، تخفي تحته قشر بيض يابس، وكلما تقلبت عليه، سمع سيد الطقطقة، فتأوهت وقالت:

- "آه يا سيد... سمعت؟ عضامي بتتفتّت!"

ضاع عقله المسكين بين قشر البيض وحبّه لها. وفي إحدى الليالي، قالت له بصوت خافت:

ـ "فيه حكيم في بلاد الظلمات، ودا بعيد يا سيد... شهرين على الأقل، بس هو الوحيد اللي يعرف يداوي عضامي. بس الطريق مليان وحوش وقطاع طرق."

شدّ سيد عباءته، نظر إلى عينيها الخادعتين، وصدقها... لأن الفلاح البسيط لا يعرف الكذب، لذلك يقع فيه.

الفصل الأول: المرض الكاذب :-

في قرية بعيدة، بين التلال المتمايلة مع الريح، عاش سيد، فلاح بسيط لا يملك سوى قطعة أرض صغيرة وسماء صافية فوق رأسه. كان قلبه ممتلئًا بالحب والإخلاص، لا يعرف الكراهية ولا الغدر، وكان يسعى كل يوم ليزرع حياة أفضل له ولزوجته شريفة.

كل صباح، يخرج سيد إلى الحقل، يحرث الأرض، يغرس البذور، ويسقي النباتات بالماء البارد. كل حركة، كل قطرة عرق، كانت تعبيرًا عن جهده وعن حبه العميق لشريفة، التي

كانت تنتظره عند عتبة البيت بابتسامة هادئة ولمسة حانية.

عندما يعود مساءً، يضع كسرة خبز أمامها بفخر، وكأنما جلب لها الدنيا وما فيها. كانت شريفة تستقبله بابتسامة وحنان، يجلسان معًا، يتحدثان عن الزرع والحرث والحياة، يضحكان ويخططان للغد. كان الحب يملأ البيت، والطمأنينة تحيط بهما كستار دافئ، وكان كل شيء يسير بسلاسة، كأن الزمن نفسه توقف ليمنحهما سلامهما.

وفي أحد الأيام، وبينما كان سيد يفرز الحبوب في وعاء خشبي، نظرت إليه شريفة بعينين تلمعان بالحزن المصطنع وقالت بصوت مرتجف:

– "آه يا سيد... كل ما أتقلب في الفرشة بحس كأن عظامي بتتكسر..."

قفز قلب سيد خوفًا، اقترب منها بسرعة، يتحسس ظهرها وذراعيها بقلق:

– "ده من إيه بس يا وليّة؟! نحاول نوديّكي لحدّ من الأطباء؟"

هزّت رأسها بحزن مصطنع، ودموعها الكاذبة تتلألأ في عينيها:

– "ما ينفعش... ده مرض نادر. ملوش علاج إلا في بلاد الظلمات... مكان بعيد، ما يروحلهاش إلا اللي قلبه جامد. فيها علاج، بس الطريق خطر... وحوش وقطاع طرق. وتبعد شهرين سفر يا سيد."

ارتبك قلب الفلاح الطيب. لم يفكر كثيرًا. كل ما يشغله هو شريفة وشفاؤها:

– "لو ده هيخليكِ صحيحة، هاروح أي مكان... أي مكان بس أهم حاجة صحتك."

ما لم يعرفه سيد أن وراء هذا الألم كان خداعًا مدروسًا، وأن تحت الحصير كانت شريفة تخبئ قشر البيض، وكلما تقلبت عليه، تكسر، فتبدو الأصوات كما لو كانت عظامها تتشقق وتتفتت بالفعل.

في الأيام التي تلت ذلك، كان سيد يذهب إلى الحقل باكرًا، يغرس البذور، يحرث الأرض، يسقي النباتات، ويتحرك بين الأشجار. كل حركة كانت رمزًا للجهد، وكل قطرة عرق تعكس أمله بأن حبه وعمله سيعيدان الصحة لشريفة.

كل مساء، يعود إلى البيت، يراقب شريفة بعناية، يحاول أن يلمس جسدها برفق، يراقب تنفسها، يسمع أنينها، وكل ذلك يزيده خوفًا وحنانًا.

شريفة كانت تتحرك بهدوء، تتلوى قليلًا، تتأوه بشكل محسوب، تهمس بكلمات مصطنعة، وكل هذا ليبقى سيد أسير الخوف والحب والاهتمام. كل دمعة يسقطها كانت جزءًا من المسرحية، وكل نظرة حزن كانت محسوبة، وكل حركة دقيقة محسوبة لتبدو حقيقية.

ثم ظهر صالح، الرجل الكبير في السن، الغني، المهيمن على الأرض والمال، الذي يعرف كيف يغوي القلوب بالكلمات المدروسة والنظرات الثقيلة والابتسامة الخبيثة.

بدأ يظهر تدريجيًا أمام شريفة، يتحدث معها عن أمور تبدو بريئة، اهتمام زائد، مدح مستتر، ثم بدأت تتحرك في قلبها رغبة جديدة: الحرية، القوة، حياة لم يعرفها الحب الطيب لسيد.

شيئًا فشيئًا، بدأ صالح يغويها، يزرع في ذهنها فكرة أن بإمكانها التحكم في مصيرها، أن تعيش حياة أخرى بعيدًا عن طيبة سيد المفرطة، وأن الحب وحده لا يكفي لإشباع رغباتها.

بعد مرور أيام، اتفقت شريفة مع صالح على خطة محكمة: المرض الكاذب. الهدف لم يكن الألم نفسه، بل التخلص من سيد، وخلق جو يسمح لهما بالعيش بحرية.

بدأت شريفة تنفيذ الحيلة بحذر:

تتحرك على قشر البيض تحت الحصير كل ليلة، فتصدر الأصوات كما لو كانت عظامها تتكسر.

تتلوى وتتأوه، تهمس بكلمات محسوبة لإثارة خوف وحنان سيد.

كل دمعة يسقطها سيد، كل نظرة حزن، كانت تسجلها شريفة لتعرف متى يكون ضعيفًا بما يكفي لتصديق كل ما تقنعه به.

صالح كان يوجّهها عن بعد، يحدد توقيت كل حركة، يعطيها تعليمات حول تعبيرات الوجه وحركة اليدين والجسم، حتى تصبح كل مشهدية مؤلمة لكنها مقنعة جدًا.

مع حلول الليل، حين يسدل الظلام ستاره على البيت، يخلد سيد للنوم، لكن قلبه لا يهدأ. يسمع أنين شريفة، يحاول معرفة الحقيقة، يلمس الحصير، يظن أن الألم حقيقي.

في أحلامه، يرى نفسه يسير في طرق وعرة، يواجه الظلال والوحوش، يبحث عن دواء لمرض لا وجود له إلا في كلمات شريفة. كل ليلة تعكس مخاوفه وحبه، وكل صباح يعود إلى الحقيقة ليجد نفسه أسيرًا لمسرحية محكمة الصنع.

مع مرور الأيام، بدأ سيد يحزم نفسه للرحلة الطويلة إلى بلاد الظلمات، يجهز حقيبته، يخطط لكل خطوة، قلبه ممتلئ بالأمل والقلق. لم يكن يعلم أن الطريق ليس مجرد رحلة للشفاء، بل بداية لمواجهة الحقيقة: الخيانة، الغواية، والتآمر بين شريفة وصالح.

كل خطوة في الحقل، كل قطرة عرق، كل نظرة نحو البيت، تقربه أكثر من اكتشاف حجم الخداع، ومن إدراك أن الحب الذي كان يملأ حياتهما لم يكن كافيًا ليحميه من خطط شريفة وصالح. ومع كل صباح، وكل مساء، وكل أنين يسمعه، يزداد قلبه ثقلًا، وتبدأ رحلة الاكتشاف التي ستغير حياته إلى الأبد.

الفصل الثاني: العشيق صالح :-

بينما كان سيد يحفر في الطين، يتصبب عرقًا تحت الشمس الحارقة، ويقوّس ظهره في صمت، كان قلبه معلقًا بصوت شريفة، يتذكر أنينها وأوجاعها، ويظن أن كل قطرة عرق يسكبها ستقربه من شفائها. كل حبة تراب يحفرها بين يديه كانت كأنه يزرع حياة جديدة، لكن الحياة نفسها كانت تُسلب منه في بيته، على أيدي من يحب.

في هذه اللحظة، وفي مكان بعيد على أطراف القرية، كان صالح يجلس في بيته الفسيح، محاطًا بخدمه ودوابه، منزلٌ كبير ذو أبواب ثقيلة وجدران باهتة، تحكي سنوات العمر والثراء، لكنه فارغ كقلبه. رجل تجاوز السبعين، جسده متعب من السكر، وعيناه تتوهان في فراغ يسكنه منذ سنوات. لكنه لا يزال يمتلك ثراءً يحسد عليه الجميع، ويجلس في تلك الليالي الطويلة يبحث عن ما يملأ فراغه.

كانت شريفة تأتيه متخفية. عباءة سوداء فضفاضة تخفي جسدها، لكنها وحدها تعرف كيف تجعلها أداة للسيطرة والإغراء. تمشي في طرق جانبية، تتسلل بين الظلال، تمرّ بلا أن يراها أحد، كأنها شبح يمشي في الليل، تدخل البيت بهدوء وثقة، تتقدم خطواتها كأنها ملكة في مملكتها السرية. تجلس أمامه بلا خجل، ترفع عينيها وتبتسم، تتدلع بالكلمات والضحكات، وصالح يمد يده المرتجفة إلى صدره المتهالك، يضغط على قلبه لا من الحب، بل من الشهوة والافتتان بما يظن أنه حياة ثانية تمنحه الشعور بالقوة.

قال لها بصوتٍ متقطع:

– "ما عادش ينفع تيجي كتير كده... جوزك ممكن يشك."

ابتسمت ابتسامة خبيثة، اقتربت منه، وضعت يدها على يده وقالت:

– "ده غلبان... بيصدقني لو قلت له إن السماء بتولد. هنخليه يروح بعيد. وأنا هنا... ليك."

قهقه صالح بمرح، لكنه سرعان ما تراجع، عيناه تبحثان في عينيها، تلمحان المخادعة والخبرة التي تعلمتها مع مرور السنوات:

– "ها؟ عملتي الخطة بتاعة البيض؟"

أجابت بابتسامة غامضة:

– "كل ليلة بحط قشر تحت الحصير، ولما أقلب جسمي يعمل صوت... وهو يعيط. يفتكرني بتكسر من الوجع. يصدق إني باموت بين إيديه."

ضحك صالح، لكن ضحكته سرعان ما تلاشت مع سعال خفيف اضطره لشرب الماء. مدّ يده نحوها، كما لو كان يعوّض سنين ضعفه، سنوات العمر التي سرقت منه قدرته على الشعور بالحياة.

ليالي كاملة، قضتها شريفة في التمثيل: تصنع أنينًا مؤلمًا، تتقلب على السرير، ثم تختبئ خلف الوسادة لتضحك من صدق سيد ودموعه. كلما زادت دموعه، زادت شهيتها للضحك واللعب بخداعه. كانت تدرك أن قلبه عالق بين الشك والخوف، وأنه لا يعرف كيف يفرق بين الحقيقة والوهم.

أما سيد، فكان في الحقل، يزرع الحياة بيديه، يتعب، يتعرق، يحمل الأرض على ظهره كما لو أنه يحمل العالم كله. الشمس تحرق ظهره، الطين يلتصق بقدميه، لكنه مستمر،

يزرع، يروي، يأمل أن يملأ بيته بالقمح، بينما شريفة تملأ قلبه بالخداع والفراغ.

الليل يطرق القرية بصمت، وسكونه يغطي كل شيء. شريفة تحلم بكيس جديد من الذهب، أو ربما بعشيق آخر إن انتهى هذا. وصالح يغرق في وهمه، يحلم أنه لا يزال شابًا، يضحك مع شريفة، ينسى شيخوخته وألمه.

في صباح اليوم التالي، جلست شريفة في زاوية من البيت، تطل على الحديقة الخلفية، وتفكر في خطة جديدة. كيف تجعل سيد يصدق أنها مريضة أكثر من أي وقت مضى؟ كيف تجعل صالح يظن أنه يملكها وحده؟ كتبت خطة دقيقة في رأسها، كل حركة محسوبة، كل نظرة مخادعة، وكل كلمة مختارة بعناية.

سيد، بعيدًا، بدأ يشعر بالقلق. ترددت فكرة في رأسه أن هناك شيئًا غير طبيعي في حديثها الأخير. لكنه لم يجرؤ على الشك. كان يعتقد أن مرضها حقيقي، أن الألم الذي تسمعه هو حقيقة، لم يكن يعلم أن وراء الحصير وقشر البيض تكمن لعبة شيطانية تخدع قلبه، وتزرع الوهم في عقله.

بينما الليل يلف القرية بعباءته، ينام صالح محاطًا بالوهم، يحلم أنه يركض مع شريفة في حدائق خيالية، ينسى العمر والمرض. وشريفة تغلق عينيها على أحلامها، تحلم بالثراء والحرية، وربما بعشيق آخر إن انتهى هذا. أما سيد، فهو في الحقل، يجهز الرحلة التي ستقوده إلى بلاد الظلمات، رحلة تبحث عن حقيقة خفية، عن علاج لا يعرف مكانه إلا وراء الظلال.

في الأيام التالية، كانت شريفة تتدرّب على الخداع أكثر فأكثر. كل يوم تراقب خطواته، كل ليلة تضع قشر البيض بطريقة أكثر براعة. كانت تعرف أن سيد سيظل يصدقها مهما طال الوقت، لأن ثقته فيها جزء من طبيعته، جزء من حبه العميق الذي لم يضعف رغم التعب والخيانة.

أما صالح، فكان يلاحظ كل حركة لها، كل ابتسامة، كل لمحة من تلاعبها. لكنه لم يكن يجرؤ على السؤال، فهو سعيد بالسيطرة التي يظنها ملكه، وهو ينسى أن قلبه ضعيف، وأن سنينه أضعف.

وبينما شريفة وصالح يعيشان وهمهما الخاص، كان سيد يحفر الأرض يومًا بعد يوم، يبلل التراب بعرقه، يحلم بموسم جديد، يحلم بعالم مختلف، وهو لا يعرف أن هذه الرحلة ليست مجرد زرع للقمح، بل بداية رحلة أكبر، رحلة ستكشف له الحقيقة كاملة، رحلة ستقوده إلى بلاد الظلمات حيث سيواجه كل ما لم يكن يتوقعه.

الفصل الثالث: بلاد الظلمات :-

خرج سيد مع الفجر، والليل ما زال يتشبث بأطراف السماء، كطفل عنيد لا يريد أن يترك حضن أمه. حمل في يده كيسًا صغيرًا فيه بضع تمرات وقطعة خبز يابسة، لا تكفي لسد جوعه في يوم واحد، لكنه كان يظن أن الرحلة لن تطول. قلبه كان مثقوبًا، معلقًا هناك في البيت، عند شريفة، عند صوتها وهي تتأوه وتتلوى على الفراش. كان يتذكر عينيها المطفأتين وهي تهمس له في الليلة الماضية: "ما فيش شفايا هنا... دوائي في بلاد الظلمات."

شدّ على قلبه كمن يشدّ على جرح ينزف، ومضى في الطريق. مرّ على الحقول النائمة، السنابل مائلة برؤوسها المثقلة بالندى، والقصب واقف كجنود خضر يلوّحون له وداعًا. كل شيء بدا صامتًا، إلا قلبه الذي يقرع صدره بعنف، كأنه طبول حرب.

لم يكد يتجاوز أطراف القرية حتى اعترض طريقه كلب مسعور، عيناه تقدحان شررًا، وأنيابه بارزة. توقف سيد، أخرج من كيسه قطعة خبز يابسة ورماها بعيدًا. انقض الكلب عليها، وانتهز سيد الفرصة ليمضي مسرعًا. تمتم في داخله: "حتى الكلاب جعانة، حتى الكلاب عايشة في عذاب زيّنا."

الشمس بدأت ترتفع، والعرق يتصبب من جبينه. الطريق كان طويلاً، كأنه لا ينتهي، كل منعطف يجره إلى آخر أشد وعورة. عطشه اشتد، فوجد ساقية ضحلة، انحنى ليشرب منها، لكنه ما إن ذاق حتى اكتشف أن ماءها مالح كالدموع. بصق ما شرب، ومسح فمه بكمّه، وأكمل الطريق ولسانه يتلظى.

مرّ بقرية غريبة، وجوه أهلها لا يعرفها. سألهم عن بلاد الظلمات، فضحك بعضهم، وقال شيخ هرم بلحية بيضاء:

– "إنت عايز تمشي ورا السراب يا غريب؟ بلاد الظلمات ما هيش إلا جوّا نفسك."

لكن سيد لم يلتفت. كان داخله صوت آخر، صوت شريفة، يهمس له: "دوائي هناك... هناك."

كل ميل يقطعه كان يثقله أكثر. جوعه ينهش بطنه، والتمرات القليلة في الكيس تتناقص. أكل واحدة، ثم جلس يستريح تحت شجرة يابسة. أحس أن الأرض تدور تحته، وأن الطريق أطول من العمر. لكنه شدّ نفسه ونهض، وقال في سرّه: "لو رجعت من غير الدوا... هتبص في وشي إزاي يا سيد؟"

حين جنّ الليل، التفّت حوله الوحشة. أصوات غريبة تتعالى من بعيد: نباح ذئاب، صراخ بوم، أنين ريح تشقّ الصخور. جلس على حجر يحتمي بظلّ هش، وأخرج تمرة أخرى. مضغها ببطء، كأنها آخر ما تبقى له من الدنيا.

في اليوم الثالث من رحلته، ظهر الجبل. أسود شامخ، كأنه قطعة من الليل نُزعت

وغرست في الأرض. نظر إليه سيد بعينين مثقلتين، وقال لنفسه: "هنا بلاد الظلمات... أكيد هنا."

بدأ التسلق. الصخور حادة تجرح قدميه، والريح تصفع وجهه ببرود قاس. كل خطوة كانت حربًا مع نفسه، لكنّه مضى، حتى لمح فم كهف فاغرًا كفم وحش. رائحة غريبة تتصاعد منه، خليط من تراب قديم وبخور محترق.

اقترب سيد، وتردّد لحظة، ثم دخل. صدى خطواته تردّد في العتمة، حتى جاءه صوت عميق، كأنه يخرج من بطن الأرض:

– "ما الذي أتى بك؟"

ارتعش سيد، لكنّه جمع شجاعته وردّ:

– "زوجتي... قالت إن علاجها في بلاد الظلمات."

ساد صمت لوهلة، ثم جاء الصوت:

– "وهل نظرت تحت الحصير؟"

انقبض صدر سيد، كأن الكلمات سهمٌ أصاب قلبه. لم يفهمها كلها، لكنه شعر أن خلفها سرًا أكبر من طاقته.

قال الصوت من جديد، ببطء يشبه تقطير الحكمة:

– "بعض النساء لا يُصبن بالوجع... بل يُصبن بالخداع. ووراء كل كسر صوت، وليس كل صوت كسر."

ترددت الكلمات في الكهف، تضرب جدرانه ثم تعود إليه كصدى من السماء. أراد أن يسأل، لكن صوته اختنق. مد يده إلى الجدار، فلم يجد إلا حجارة باردة. الكهف سكت فجأة، كأن الحكيم انمحى أو لم يكن موجودًا من الأصل.

خرج سيد وهو يتعثر في خطواته. الجبل خلفه بدا أثقل من أي وقت مضى، لكن قلبه كان الأثقل. لم يعد كما خرج؛ شيء فيه انكسر، أو ربما شيء استيقظ. كان يمشي وفي عينيه ظلام آخر، ظلام أشد من ظلام الكهف: ظلام الشك.

عاد أدراجه، الطريق نفسه لكنّه لم يعد يرى فيه الحقول ولا القرى، بل يرى خيطًا أسود يمتد من صدره إلى بيتٍ بعيد، إلى امرأة تتمارض، إلى حصير ربما يخبئ أكثر مما يعلن.

وسيد يمشي... يمشي وقلبه مثقل، كأن بلاد الظلمات لم تكن في الجبل، بل في بيته.

الفصل الرابع: قصبٌ للحبايب :-

لم يكن في الدنيا أقسى على قلب سيد من أن يعود إلى بيته متخفيًا كغريب. ارتدى جلابية قديمة مرقوعة، ولفّ على رأسه طاقية سوداء باهتة، وأسند على كتفه عصًا طويلة علق بها عيدان القصب اللامعة كأنها سيوف خضراء. كان يمشي بين أزقة الحارة متهالكًا، يتعمّد أن يغيّر مشيته، يخفض رأسه، ويشد لحيته الكثّة التي طالما أخفاها عن شريفة في أيام عزه. الآن صارت لحيته قناعًا يقيه الفضيحة، حتى يتمكن من أن يرى ما لم يكن يصدّقه.

وقف أمام بيته، أمام الجدران التي بناها حجرًا فوق حجر من عرق جبينه. لم يصدق أنه صار غريبًا عنها، يطرقها كبائع جوال لا يعرف ساكنيها. رفع صوته محاولًا أن يقلد نداء الباعة:

– "قصب للحبايب... قصب دواء العيان... يا قصب!"

خرج صوته مبحوحًا، غريبًا حتى على أذنيه، كأنه صوت رجل آخر يسكن جسده. كان ينادي والمرارة تقطر من حروفه. لم يكد ينهي نداءه حتى تحرّكت ستارة الشباك، وظهرت شريفة.

وقفت تترصده بعينيها، لم تعرفه. رأته مجرد بياع قصب مثل غيره. رفعت حاجبها في دلال وسألته:

– "يا بتاع القصب... بكام العود؟"

تجمّدت أنفاس سيد لحظة، ثم ردّ بصوت مكسور متعمّد أن يغيّر نبرته:

– "برُقصة."

قهقهت ضاحكة، ضحكة لم يسمعها منه منذ شهور. تلك الضحكة التي كانت يومًا له وحده، صارت الآن لغيره. كان يذكر كيف كانت تضحك وهو يحمل إليها أعواد القصب من السوق، وكيف كانت تقول إن حلاوته تذكرها بحلاوة أيامها معه. والآن... ضحكتها كالسهم يغرس في صدره.

فتحت الباب له وقالت:

– "ادخل يا بتاع القصب... نشوف رقصتك بكام."

دخل سيد بيته متنكرًا وكأنه ضيف ثقيل. كل زاوية من البيت تذكره بحياته الماضية: السرير الخشبي الذي نام بجواره لسنوات، الجدار الذي علق عليه أحلامه، المطبخ الضيق الذي كان يضع فيه خبزه الحافي. الآن صار البيت مسرحًا لفضيحة، وهو متفرج متخفٍّ.

جلست شريفة في منتصف الغرفة، وبدأت ترقص. جسدها يتمايل بخفة، وخصرها يهتز كغصن في ريح عاصفة. عينا سيد تتابعانها في صمت، كأنهما تصوّران المشهد ليبقى حرقًا أبديًا في ذاكرته. لم يصدق أن هذه المرأة نفسها التي كانت تدّعي المرض، تستلقي على الفراش متظاهرة بالعجز، لتبرر غيابها عن فراشه. والآن ترقص لبِاعٍ مجهول!

كان صوته الداخلي يصرخ: "أنا سيد! أنا جوزك! إزاي تعمل كده؟" لكنه كتم غليانه، بلع صرخته كما يبلع السم. شعر أن الأرض تدور تحت قدميه، وأن القصب على كتفه صار أثقل من جبال الدنيا.

وفجأة... دوى طرقٌ على الباب. تجمّدت شريفة لوهلة ثم أسرعت تفتح، فإذا بـ صالح يدخل. رجلٌ ممتلئ الجيب، رائحته عطر فاحش، يخطو واثقًا كأنه صاحب المكان. ابتسم لها ابتسامة يملؤها التملك، ومد يده ليصافحها في جرأة.

وقف سيد في الركن كأنه ظل. لم يعرفه صالح، لم يلحظ إلا بائع قصب عادي. تبادلا بضع كلمات عابرة، ثم التفتت شريفة نحو سيد وقالت:

– "هات يا عم... اديني شوية قصب."

اقترب منها سيد بخطوات بطيئة، كأنه يسير إلى قبره. ناولها خمسة أعواد وقال بصوت ثابت، حاول أن يجعله باردا كالحديد:

– "ده تمن الرقص... وزيادة."

نظر إليها طويلًا، نظرته حملت ما لم تستطع الكلمات حمله. ثم استدار وخرج، والخطوات تتثاقل كأنه يسحب خلفه عربة من جراح. لم يلتفت، لم يرد أن يرى ما سيحدث بعده.

خلفه، في البيت الذي كان يومًا ملكه، بقيت امرأة ترقص بين رجلين. بيتٌ كان شاهدًا على عشرةٍ وحبٍ، صار الآن شاهدًا على عارٍ يرفرف في هيئة جسد يتمايل. أما سيد، فمضى في الحارة بملامح باهتة، يبيع قصبًا مُرًا لا حلاوة فيه.

الفصل الخامس: أعواد الصمت :-

كان الليل قد أرخى سدوله على القرية، والنجوم مبعثرة فوق السماء كحبات قمح تائهة على غربالٍ واسع. الريح تمرّ خفيفة بين سنابل الذرة اليابسة، تصدر حفيفًا كأن الأرض نفسها تهمس بسرّ مكتوم. البيوت غارقة في سكونٍ ثقيل، لا يقطعه سوى نباح كلب بعيد، أو صياح ديكٍ عجول ضلّ توقيته.

في هذه العتمة، كان سيد يسير متخفف الخطى، حافي القدمين، يتسلل في دروب القرية الضيقة كظلّ لا يُرى. ملامحه متيبّسة، عيناه غائرتان، وصدره يعلو ويهبط بأنفاس متقطعة، كأن نارًا تستعر داخله ولا يملك لها إطفاء. كل خطوة يخطوها كان يسمع معها وقع الماضي: ضحكات شريفة، وعودها الكاذبة، حنانها الذي صار سكينًا مسمومة في خاصرته.

حين بلغ بيته، وقف برهة أمام الباب، يده ترتجف وهو يضعها على الخشب البالي. تردّد: أيدخل؟ أيتراجع؟ داخله صوتان يتصارعان؛ أحدهما يهمس بالصفح: "اتركها... ما عاد في العمر ما يستحق هذا الدم."، والآخر يصرخ: "لقد دنّست فراشك، وسخرت من طيبتك، الخيانة لا تُغتفر."

أزاح الباب ببطء، كأنه يخشى أن يوقظ الأشجار النائمة حوله. دخل الغرفة، ظلامها أشد كثافة من ظلمة الليل في الخارج. هناك، على الفراش، كان جسد صالح ممددًا،

ساكنًا، غارقًا في نوم ثقيل بعد سُكرٍ فاحش. في زاوية أخرى، شريفة تلوذ بغطاء رقيق، عينها نصف مفتوحة، لكنها غارقة في بلادة الإنهاك.

تقدّم سيد بخطواتٍ بطيئة، حتى بلغ ركن الغرفة حيث يستقر منجله القديم، ذلك الذي شاركه مواسم الحصاد كلها، واعتاد على قطع سنابل القمح اليابسة. أمسك به، والحديد البارد ارتعش في يده، لكنه شعر أن قبضته تزداد صلابة مع كل لحظة.

وقف فوق صالح، قلبه يخفق كطبول حربٍ لا تهدأ. تردّد ثانية، سمع صدى صوته الداخلي يهمس: "يا سيد... هذا دم، والدم لا يغسله ندم." لكن صورة الأيام التي عاشها بين الخداع والعار، وصوت القهقهة الذي تذكره بخيانتهما، دفعه إلى الهاوية. رفع المنجل عاليًا، وفي لحظة واحدة، انقضّ به.

لم يصرخ صالح؛ الصوت الوحيد الذي شقّ السكون كان خوار الهواء وارتطام الحديد باللحم. انسكب الدم على الفراش كجدولٍ صغير من العار المراق. شريفة شهقت، لكن صوتها انكتم في صدرها، كأن الرعب جمد حبالها الصوتية. سيد لم يلتفت إليها، لم ينظر في عينيها، لم يقل كلمة.

بعد أن انتهى، جلس قليلًا على الأرض، كأن كل قواه قد سُحبت منه. ثم مدّ يده إلى قطعة قماش بيضاء قديمة، كانت يومًا ما غطاءً للغسيل. لفّ الجثة بها بعناية غريبة، وكأنه يحنّط الخيانة في كفنٍ ناصع.

خرج من البيت متسللًا كما دخل. الليل يرقبه بصمت، والقمر نصف مكتمل يتوارى وراء الغيم. سار بخطوات ثابتة حتى بلغ مدخل القرية، حيث يقف جذع نخلة يابسة مهجورة منذ سنوات. هناك، علق القماش المدمى، فصار كتلة متدلية تنزف صمتًا.

أخرج قطعة فحم كان يحتفظ بها في جيبه، وكتب بخط مرتجف أسفل الجذع:

"هنا... عُلقت الخيانة."

ثم استدار، ومشى عائدًا إلى الحقول، كأنه جزء من الليل نفسه، تاركًا خلفه وصمةً لا تمحى.

مع أول خيوط الفجر، حين انطلق الفلاحون نحو الحقول، رأوا المشهد. جمدت أقدامهم، تسارعت همساتهم، النساء وضعن أيديهن على وجوههن، والرجال تبادلوا نظراتٍ فاغرة. شيخ القرية اقترب، قرأ العبارة بعينين دامعتين، ثم قال بصوت خافت: " الصمت أثقل من الدم."

ومنذ ذلك اليوم، صار مدخل القرية شاهدًا صامتًا على حكايةٍ تُروى همسًا، وتُخشى جهرًا، عن رجلٍ بسيطٍ اسمه سيد، وعن أعواد الصمت التي حملت عار الخيانة إلى الأبد.

الفصل السادس: سقوط شريفة:-

كان الصباح في تلك القرية الصغيرة يشبه وجوه أهلها: بسيطًا، صافيًا، لكنه لا يخلو من شقوق خفية.

ضوء الشمس لم يكن دافئًا كما تعوّد، بل بدا وكأنه يجرّ نفسه جَرًا فوق الأسطح الطينية، كأن النهار نفسه متردد في أن يبدأ، مُتوجّس ممّا سيُقال وممّا سيُروى.

خرجت شريفة من بيتها بخطوات باردة، متعبة، كأن الليل لم يترك لجسدها ساعة واحدة من الراحة.

لم تنم. كيف ينام قلبٌ مهدّد، وضمير يلهث خلف كذبة صنعتها بيديها؟

كانت تتلفّت حولها في الطريق الترابي المؤدي إلى الساقية، وتجمع عباءتها حول جسدها كلما هبّت نسمة خفيفة، نسمة تشبه صدى خوفها القديم.

لكنها توقفت فجأة.

عيناها علقتا بقماش أبيض مُعلق على الجدار المقابل لمسجد القرية.

القماش يتمايل ببطء، والريح تعبث بحوافه، فيما الكلمات المرسومة عليه بخط أسود فاحم تتراقص أمامها:

"الخائن لا يشفى... وإن ادّعى المرض."

كأن أحدهم رمى بصخرة داخل صدرها.

جحظت عيناها، وتجمّد الدم في أطرافها.

حاولت أن ترفّ بعينيها، لعلها تخطئ القراءة، لعلها ترى شيئًا آخر، أي شيء سوى الحقيقة.

لكن الحقيقة كانت هناك... واضحة... قاسية... معلقة أمام كل الناس.

اقتربت ببطء، بقدر ما تحتمله ساقاها المرتجفتان.

لمست القماش بطرف أصابعها فشعرت أنه أبرد من الصقيع.

كانت الريح تحرّك العبارة حتى بدت الكلمات وكأنها تتهامز، تسخر، تُعيد جريمتها إلى الواجهة.

"الخائن... لا يشفى..."

كأن الجدار يرددها لها وحدها.

اختنق الهواء في صدرها.

فجأة تذكرت كل ليلة ادعت فيها العجز، كل تنهيدة مفتعلة، كل نظرة خائفة من انكشاف السر...

وتذكرت صالح.

نظرة منه تكفي لإعادة توازنها… أو إسقاطها نهائيًا.

ركضت.

ركضت كمن رأى نهايته تلوّح له من بعيد، تركض بلا اتجاه، تطيّر الغبار حولها، وتتعثّر بالحجارة.

كانت تبحث عنه… عن صالح.

عن الرجل الذي شاركها الكذبة، ثم اختفى عنها في أيامها الأخيرة كأنه يريد أن يتركها وحدها تغرق.

وجدته عند الساقية، ملقى على التراب الرطب.

كان مستلقيًا على جانبه، ويده تضغط على بطنه كمن يحاول أن يمنع الألم من الخروج.

سمعت أنينه قبل أن تراه.

أنين يشبه صوت حيوان جريح، صوت رجل فقد شيئًا أكبر من حياته… فقد شرفه.

اقتربت منه وهي تلهث، ركعت بجانبه، وضعت يدها على كتفه وهمست بنبرة مهزوزة:

— "صالح… قوم… بالله عليك قوم! قولي إنك ما علقتش الكلام ده… قولي إنك بخير…"

رفع رأسه إليها.

لم يكن الرجل نفسه الذي عرفته.

عينيه مطفأتان، مطفأتان تمامًا، كشمعتين انطفأتا في ليلة ريح لا تهدأ.

قال بصوتٍ مكسور، صوت رجل حمل أكثر مما يحتمله قلب بشر:

– "خلص… كل حاجة خلصت يا شريفة. شافوني… سمعوني… انفضحنا."

تراجعت الكلمات داخل صدرها.

حاولت أن تتكلم فخانها صوتها.

لم تجد غير البكاء، ذاك البكاء الذي يخرج من أعماق لا يطالها ضوء النهار.

وبينما هما جالسان على التراب، كانت القرية تعجّ بالحركة.

نسوة يفتحن أبواب بيوتهن على استحياء، رجال يقفون عند مداخل الدروب الضيقة، وأعين تتلصص من خلف الشبابيك الخشبية.

الفضيحة، كالريح، لا تحتاج إلى دعوة لتنتشر.

سمعت امرأة تقول لجارتها:

– "شوفتِ؟ المكتوب واضح… دي مش أول مرة… ربنا يسترا!"

وردّت أخرى:

– "وأبو سيد المسكين؟ ده كان شايلها على راسه!"

من يومها… تغيّرت نظرة الناس.

شريفة لم تعد امرأة مريضة تحتاج لشفقة،

بل صارت لعنة تمشي على قدمين.

كانت تمشي في الطريق فينفر الأطفال من حولها كما لو كانت ظلًا مظلمًا.

يتحاشاها الرجال بوجوه جامدة،

أما النساء، فتظهر المرارة في أعينهن كلما مرّت أمامهن، مرارة فيها شيء من الغضب،

وشيء من الخوف...

وكثير من الشماتة.

عادت إلى بيتها.

البيت الذي كان يومًا ملاذها صار الآن قبرًا صغيرًا.

جدرانه تشهد ولا تتكلم، وسيد... سيد كان أكثر ألمًا من أن يصرخ.

كان يجلس في ركن غرفته، ينظر إلى الأرض،

لا يصيح، لا يكسر شيئًا، لا يسبّ.

فقط ينظر.

تلك النظرة...

كانت أشد من الضرب، أشد من الشتائم، أشد من أي عقاب.

مرّت أيامها الأولى كأنها تسير داخل ضباب كثيف.

لا تسمع إلا صوت خطواتها داخل البيت، ولا ترى إلا الفراغ الواسع الذي خلفته خيانتها.

كانت تنام قليلًا، وتستيقظ على كابوس واحد:

صوتٌ يهمس في رأسها، صوته يشبه صوت الطفل الضعيف...

"قشر بيض... قشر بيض..."

كأن عقلها يعيد لها رمزية ضعفها، هشة مثل القشر،

كل شيء فيها هشّ، حتى قلبها.

وذات ليلة، حين نامت القرية وغرقت الأزقة في السكون،

خرجت شريفة من بيتها.

لم تكن تعرف إلى أين تذهب، فقط أرادت أن تهرب من الجدران التي تعرف قصتها.

كانت ترتدي عباءة سوداء، شعرها منسدلًا، وبيدها كيس صغير لا يضم سوى بعض قشور البيض التي احتفظت بها دون أن تدري لماذا.

ربما أرادت أن تحمل رمز جريمتها، أو رمز هشاشتها... لا فرق.

رآها رجل من بعيد وهي تخرج، لكنه لم ينادِها.

كانت أشبه بظلٍ بلا صاحب.

اختفت.

ومع الفجر، بدأت الحكايات.

منهم من قال إنه رأى شريفة قرب النخيل تهذي بكلامٍ غير مفهوم، تمشي حافية القدمين وتضحك ضحكة قصيرة ثم تبكي.

ومنهم من قال إنها عبرت الحقول حتى وصلت إلى البراري،

كانت تحمل قشر بيض في حضنها، تضمه إلى صدرها كأنه آخر ما بقي لها من الدنيا.

قال أحد الرعاة إنه وجد أثر خطاها قرب التلال، ثم اختفى الأثر فجأة...

كأن الأرض ابتلعتها.

وفي الصباح...

لم يبقَ من الحكاية إلا القماش الممزق المعلق أمام المسجد.

الريح تمر عليه كل يوم، تعبث به، فتتساقط بعض خيوطه وتبقى عبارته شاهدة:

"الخائن لا يشفى... وإن ادّعى المرض."

والقرية؟

القرية تابعت حياتها،

فالقصة التي تهزّ الناس يومًا... تصبح في اليوم التالي جزءًا من غبار الدروب.

أما شريفة...

فصارت حكاية تُروى همسًا،

امرأة حملت قشر البيض... واختفت.

-الفصل الأخير: صدى القشر :-

الترعة كانت أكثر هدوءًا من أي وقت مضى. الماء يتحرك ببطء، كأنه يثقل تحت وطأة غياب شيء لم يعد موجودًا. الحصير القديم على الضفة بدا وكأنه ينتظر حضورًا اختفى منذ زمن، والقشر المبعثر على الأرض يلمع تحت ضوء الشمس الخافت، هشًا، كما لو أنه يحمل ذكريات من عالم آخر.

شريفة اقتربت من الترعة بخطوات متعبة، تتفقد المكان بعينين شاحبتين، همست بصوت خافت:

– "أين أنت يا سيد؟ هل بقيت هنا أم رحلت إلى ما لا نراه؟"

الرياح مرت بهدوء، وحركت بعض القشور، لكنها لم تلمسها، بل همست لها بصمت عميق، كأن الترعة نفسها تحاول الرد، صامتة، لكنها واضحة في شعورها.

الأيام تحولت إلى شهور، والقرية تغيرت تدريجيًا. الطيور توقفت عن الغناء قرب الترعة، الأشجار تميل وكأنها تحرس الأرض، والأطفال لم يعودوا يجرؤون على اللعب قرب الماء. كل صوت قشر ينكسر أصبح كالنداء، توقف الجميع عنده، وكأن الزمن كله يحترم الغياب.

في صباح هادئ، جلس شاب لم يرَ سيد قط على الحصير، بين القشور المبعثرة. فجأة سمع الطقطقة:

– كرك... كرك... كرك...

تحرك القشر بين أصابعه برفق، وكأن يدًا غير مرئية تحاول أن تشرح له شيئًا. همسات خافتة تسللت إلى أذنه:

– "أنا هنا... لكن ليس كما كنت."

ارتجف الشاب، لكنه لم يتحرك. الخوف والفضول اجتمعا، وأحس أن الترعة نفسها تراقبه بصمت، كأنها حارس على سرّ قديم لا يجب أن يُكشف.

شريفة بدأت ترى أحلامًا متكررة: كانت تجلس على الحصير في حلمها، وسيد أمامها، شفاف كظل ماء. يرمى القشر في الهواء، وكل قطعة تتحول إلى شعاع ضوء قبل أن تختفي. همس لها:

– "لا تبحثي عني في الحياة... ابحثي عني في الصمت."

استيقظت شريفة في كل مرة على صوت قشر البيض على أرض غرفتها، رغم أنها لم تلمسه، وشعرت بأن شيئًا من الحلم انتقل إلى الواقع، وأن الغياب أصبح أكثر حضورًا من الوجود نفسه.

في ليلة عاصفة، جلس شخص مجهول عند الترعة، يلمس القشر بعناية، يعيد كل قطعة إلى الكيس القديم. ظل يراقب القصب، وكأنه يحرس سرًا قديمًا. ثم اختفى فجأة، تاركًا القشر صامتًا، لكنه مشحون بشيء غامض وثقيل، وكأن الترعة تحمل ذاكرة كل من مرّ بها.

القرية أصبحت أكثر صمتًا، وأكثر حذرًا. الأطفال لا يجرؤون على الاقتراب، والنساء يمررن بسرعة، خائفات من أي حركة غير مألوفة. كل صوت قشر ينكسر أصبح كالنداء، توقف الجميع عنده، وكأن الزمن كله يحترم الغياب. شريفة شعرت بأن جزءًا من حياتها انسحب معها، تاركًا خلفه صدى لا ينتهي وهمسًا مستمرًا: "سيد موجود... لكنه ليس هنا."

الشاب شاهد رؤى أخرى: سيد يظهر له بين الأشجار في الليل، يبتسم، لكن وجهه مشوش، يتلاشى مع كل نسمة من الريح. القشر يتحرك من تلقاء نفسه، يشكل دوائر على الأرض، كأنه يكتب رسالة غير مفهومة. شعر الشاب بأن الترعة نفسها تتنفس، وأن شيئًا هشًا، حيًا، يراقبه بصمت.

في ليلة هادئة، جلس شخص آخر على الحصير، يحمل الكيس القديم، رفع قطعة قشر إلى السماء، وكأنها تعكس ضوء القمر، وهمس:

– "كل شيء هش… وكل شيء يبقى… في صمت."

اختفت القطعة بين يديه، والرياح حملت صوت الانكسار، تاركة الترعة صامتة، الحصير والقشر… جميعها صدى لما كان وما سيكون.

ومن يومها، إن سمع أحدهم قشر بيض ينكسر، توقف قلبه للحظة، وشعر أن العالم كله يراقب الصمت، وأن سيد لم يرحل أبدًا، بل أصبح جزءًا من كل شيء: هشًا، صامتًا، لا يمكن لمسه، لكنه حاضر في كل وهمس، في كل ظل، وفي كل قلب ينبض بالحذر.

القشر لم يعد مجرد بقايا، بل أصبح رمزًا للغياب والحضور، للهدوء والخوف، وللأشياء التي لا تموت، بل تبقى صامتة، تنتظر، تراقب، تتنفس في صمت.